الحياة الأســـرية وتداعيات الإعـــلام التلفزيـــوني

مختار رحاب ،جامعة المسيلة
عادل زرمان ،جامعة خنشلة

الملخص:

لا نشك اليوم في الدور المتعاظم لوسائل الإعلام الحديثة في صنع وتغيير معالم الحياة الإجتماعية، بل أصبح الأفراد من صنع الإعلام والصورة بكل دلالاتها ،كما لم تعد الأسرة اليوم بعيدة عن آثار هذه الوسائط الحديثة للإعلام، وفي مقدمتها التلفزيون الذي أصبح عضوا نشيطا في حياة الأسرة بما يقدمه لأعضائها من أشكال المتعة والترفيه والمعرفة المتعددة الوجوه، لكن ينبغي التركيز أيضا على ازدواجية هذه الوسيلة بين الأهمية وسلبية التأثير.

ونود في هذا المقال أن نبرز آثارها السلبية على مناخ الأسرة وتغيّر العلاقات الإجتماعية بين أعضائها، نظرا لخطورة السياقات الثقافية والأذواق التي تروّج لها، بالإضافة إلى خطر التنشئة التي تقدّمها للأطفال عبر البرامج التي أصبحت تصنع لغايات تفوق سنّهم .

Abstract:

There is no doubt today that the growing role of the modern media in making and changing the parameters of social life, individuals become made by media and image in all its aspects, and the family today is no longer far from the effects of these new media, particularly the television, which has become an active member of family life, providing to its members several forms of fun and entertainment and multi-faceted knowledge, but it should also focus on the duplication of this medium between importance and negative influence.

We would like in this article to highlight the negative effects on the family and social climate and relations among its members, due to the seriousness of the cultural contexts and tastes promoted by this media, in addition to the risk offered by the upbringing of the children through programs that are made for purposes beyond their age

مقدمة:

تزداد وسائل الإتصال الجماهيري اليوم اكتساحا في حياة الفرد والأسرة معا، فاسحة المجال أمام طغيان عالم الصورة الذي يتعذر التنازل عنه في حياة الإنسان المعاصر ويجعله أكثر إرتباطا من ناحية الإستهلاك بما يقدمه هذا الأخير.

ولعل التلفزيون هو أكثر هذه الوسائل استخداما نظرا لاستخدامه الصورة والصوت معا، بالإضافة إلى ما يغطيه من برامج متنوّعة تغطي كل أذواق المستهلكين من الأفراد والأسريين الترفيه والمتعة والإثارة والتثقيف والتربية، والأسرة المعاصرة اليوم تستهلك أكثر فأكثر المادة الإعلامية التي تقدّمها شاشة التلفزيون، لأنها وجدت على الأقل متنفسا لها من الضغوط التي تهدّدها أكثر من السابق، ولأن عالم اليوم هو بلا شك عالم الإرتباطات المتعدّدة والأعباء الثقيلة فضلا عن تنوّع الأذواق في سوق الإستهلاك المعاصر، ما يجعل الأسرة اليوم تقع في قبضة هذه الوسيلة التي تعتقد فيها ملجأ للراحة والنفيس عن ضغوط الحياة.

ولكن قد تصبح هذه الوسيلة هاجسا جديدا للأسرة يصعب التخلي أو حتى التحكم في استقلاليتها، ما يعني أكثر أن أخطارها وتأثيرها بات واضحا من حيث سلبياتها الظاهرة أو تلك الخفية التي تترك وبائها على الأسرة دون أن تمتنع في صدِّها أو التقليل من سمومها في أحيان كثيرة.

وعليه فإن غرض هذا المقال هو تبيان الآثار والتداعيات التي جاءت بها هذه الوسيلة داخل البيوت والأسر على مستوى العلاقات الإجتماعية والنمطية الذوقية التي تفرضها البرامج التلفزيونية وشكل التنشئة الإجتماعية التي

أصبحت تمارسها على صغار الأسرة دون اكتراث الأسر نفسها، ولعل ذلك يصب في عبارة المنظر الإجتماعي جون كالكين وماك بقوله أننا نمنح أدواتنا أشكالها ثم تمنحنا هي أشكالنا.

التلفزيون بين الأهمية والهيمنة:

إن الزمن الذي نعيه اليوم هو عصر التلفزيون أو عصر الصورة بلا منازع، وقد انتشر استخدام هذه الوسيلة بعد ح ع 2، ومع التطوّرات التّقنية المعقّدة في مجال الإتصالات استفاد التلفزيون من نتائج هذه الإبتكارات على غرار الأقمار الصناعية التي تغطي كل أجزاء المعمورة، وازدادت القنوات الفضائية بشكل رهيب، وتحوّل البث التلفزيوني من طور البث المحلي إلى شكله العالمي الفضائي.

فلم تمض سنوات قليلة حتى أصبح أداة فعّالة من أدوات الإتصال فعن طريقه يمكن نقل الصوت والصورة والحركة واللّون إلى المشاهدين... وقد أظهر التحقيق أن للتلفاز إمكانيات هائلة للسيطرة على تفكير البيئات الإجتماعية عامة، وعلى الأوساط الشعبية، وعلى النشء والجيل الجديد، ويقول " ولبر شرام عالم الإتصال الأمريكي إن التلفاز يملك جميع الإمكانيات والظروف التي يستطيع بها أن يأسر انتباه المشاهد ويشجعه على الإستغراق مع البرامج(بلال حمدي عرابي،علم الاجتماع التربوي: ص 111).

وقبل الإحالة إلى أهمية هذه الوسيلة الجماهيرية نعمد إلى إبراز بعض من خصائصها ذات الأهمية التي يجعلها أكثر مشاهدة بين الوسائل الأخرى .

أ- **الجاذبية** :أكّدت بعض البحوث أن 88% من المعلومات التي يحصل عليها الفرد مستمّدة عن طريق حاستي البصر 75% والسمع 13% وتجعل هذه الخاصة الجمع بين الرؤية والصوت والحركة واللّون، التلفزيون أقرب وسيلة للإتصال المباشر ، وقد يتفوّق عليه حينما يقرب الأشياء الصغيرة ويحرك الأشياء الثابتة وينقل صورا متحرّكة للناس في مواطن فيكون إدراكا حسيا للرأي

العام (عاطف عدلي العبد عبيد، مدخل إلى الاتصال والرأي العام: ص175)) .

ب- **الواقعية** : يشير "ولبشرام" إلى قرب التلفاز من واقع الإتصال الوجاهي مما يزيد من فعاليته وأثره في نفوس المتلقين لدرجة اختلاط الأمور عند بعض المشاهدين وعدم قدرتهم على التميّز بين الواقع والخيال ، ويعتبر التلفاز وسيلة لنقل الخبرات الواقعية (بلال حمدي عرابي، مرجع سابق: ص211) .

ج- **الفورية** : وتعني إمكانية نقل الأحداث الإجتماعية والسياسية على الهواء وقت حدوثها، ومن أي مكان، فضلا عن تمكين المشاهدين من المشاركة في الحصص واللّقاءات ذات المواضيع النقاشية عبر وسائط إتصالية حديثة بالصورة والصوت. وبعد أن ذكرنا بعضا من الخصائص المهمّة نركّز فيما يلي على أهمية الوسيلة في حياة الفرد والمجتمع بصفة عامة.

أهمية التلفزيون المتزايدة :

لا شك أن سيطرة التلفزيون على مجل قنوات الإعلام الأخرى وبشكل مفرط يطرح أكثر من تساؤل حول ذلك في مدى أهمية الوسيلة على حياة الإنسان المعاصر وسنبيّن فيما يلي المجالات الكبرى لذلك :

1- لقد أصبح للتلفزيون على وجه التّحديد دور إعلامي يفوق جميع الوسائط الأخرى.. إذ أن لغة الصورة لغة عالمية تتخطّى حواجز اللُّغات المحلية، وكذلك لأن التلفزيون يدخل كل بيت دون عناء، ويشاهد المتفرّج وهو في حالة استرخاء دون بذل مجهود فكري كبير.. ومن ثم يكون تأثير التلفزيون الإيجابي أيسر وأعمق.(إكرام أحمد الأهواني، الإتصال بين العولمة والمحلّية وإعداد الطفل ثقافيا: ص 773) فالتلفاز يقوم من وجهة نظر سوسيولوجيا الإتصال الجماهيري بالوظائف التالية: الإعلام، التسلية، التثقيف، التنشئة، الدعاية، التجارة والسياسة.. وهذه الوظائف أو المهام كما يسمّيها أنطون رحمة " لا تخرج كثيرا عن حدود العمل التربوي.

فالتوجيه الإجتماعي بجوانبه السياسية والأخلاقية والعلمية والرياضية وسواها، نوع من التعلُّم والتعليم فهي مهمات تربوية في مرماها ومضمونها، والإعلام والتسلية والترفيه أدوات وسبل تساعد في تحقيق المهمات التربوية"(بلال حمدي عرابي:مرجع سابق: ص ص 211-212)

وعلى ضوء الأهمية التي توليها الدول لهذه الوسيلة فقد سارعت الحكومات إلى بسط السيطرة عليها كما هو الحال في معظم الأقطار العربية، غير أن كثرة وانتشار الأقمار الصناعية قد حال دون ذلك مما أضعف من هيمنة الدول على سوق الإعلام، والذي يعد نفسه خطرا على السياسات الوطنية نفسها.

وفي مجال الأهمية دائما يمكن القول أنه يتسنى للملايين من البشر أن يشاهدوا برامج التلفزيون من مختلف الأعمار والأجناس والأديان والثقافات وفي الأوقات نفسها، كما يتميّز بالصدق والإقناع والتأثير،...فالأفكار والمعلومات والمشاهد التي تتكوَّن من الصور الحيَّة واللَّون الطبيعي والصوت الأصلي يضفي عليها مزيدا من الواقعية والقدرة على التأثير والإقناع"(محمود عبد اله الخوالد- حسين علي العموش، علم النفس السياسي والإعلامي: ص 23)

2- هيمنة الإعلام التلفزيوني:على الرغم من أهمية وإيجابية هذه الوسيلة بين وسائل الإتصال الجماهيري، يبدوا أن هناك خاصة تلوح في الأفق وهي هيمنة التلفزيون على نواحي حياة الفرد والأسرة خصوصا، ويظهر ذلك من خلال التنوّع الثرى الذي يتميّز به الإنتاج التلفزيوني وازدياد عدد القنوات الفضائية ولكنها دائما في صف الإعلام الأوروبي الأمريكي، الذي يسعى إلى خلق نمط موحّد من المجتمعات لتنخرط في ثقافة الإستهلاك، إنه إذن أحد أكبر مظاهر الهيمنة، والنمط الموحد يخضع المجتمعات إلى فراغ ذهني ثقافي بحكم ما يشيعه من قوالب جاهزة ومن اهتمامات تافهة –كما هو الشأن اليوم في الإعلام الأوروبي والأمريكي- على حوادث العنف وقضايا القتل والإغتصاب وحوادث الطرقات والحرائق وزواج الأميرات، وفي مقابل ذلك يتم إغفال تعدُّد مشاكل البشرية وتنوُّع توتّراتها وتباين اهتمامات كما يتم إغفال

ثراء المقدّسات البشرية وتعقّد الطقوس الدينية وتنمط مستوياتها والتحكّم في اهتمامات الإنسان"(نسيمة طبشوش، القنوات الفضائية وأثرها على القيم الأسرية لدى الشباب: ص 28)

وعلى ضوء هذه الفكرة يمكننا القول أن التلفزيون هو وسيلة لعرض ما يسوقه منتجي البرامج التلفزيونية أو مهندسي الثقافة الجماهيرية في أوسع نطاقها، ويمكن أن ندرج بعض مواطن الهيمنة في سلوكيات الأفراد وتبدوا ذلك مثلا في:

أ-**الحث على السلبية:** فمشاهدة التلفزيون عموما هي تجربة سلبية: يجلس الشخص ويشاهد النشاط البدائي الوحيد المعنى هنا وهو الضغط على زر، أو تناول الطعام، لذلك تتخلّل تجربة مشاهدة التلفزيون عادة حركات إلى الحمام والثلاجة.(آرثر آسا بيرغر، ترجمة صالح خليل أبو أصبع: ص 110)وعليه فإن مشاهدة البرامج هو شكل من التلقي السلبي الذي لا يكون له ردود تجاه معطيات التلفزيون ودون بذل مجهود فكري وذهني، وهذا ما يعني سلبية التلقي لدى المشاهد.

ب- **الخصوصية:** وتعني أن المشاهدين يتعلّمون التركيز على حياتهم الخاصة والإهتمامات الشخصية وبصفة عامة إهمال المسائل الإجتماعية والمجال العام فنصبح منشغلين عن المسائل الخطيرة التي تنطوي على سبيل المثال على السياسة، أو القرارات المتعلّقة بالقضايا الإجتماعية إذ نركز بدَّل ذلك على وجه الخصوص على رغباتنا للمنتجات الإستهلاكية والخدمات، وهكذا تؤدّي مشاهدة التلفزيون إلى النزعة المادية.(المرجع نفسه: ص 110).

ومن نتائج هذه الخصوصية كذلك اهتمام الشاب بالمواضيع السطحية عن حياة النجوم والمشاهير وتقليد الموضة دون مراعاة الخصوصية الثقافية والوطنية، لقد أنتج لنا التلفزيون قطاعا عريضا من الشباب المهووس بحياة جماعة خاصة من الناس على شاكلة الفنانين وأبطال الكرة المستديرة، بينما لم يعد الإهتمام بالتاريخ والقضايا الدينية أمرا يدعوا للإهتمام لأنها مكلِّفة ذهنيا وفكريا.

ج-**التخدير:** لقد أصبح الإعتقاد سائدا بأن التلفزيون مثل المادة المخدّرة، إنطلاقا من عدد الأشخاص الذين أصبحوا يعتمدون نفسيا عليه.. لقد أصبحوا بعبارة أخرى، مدمني تلفزيون، كغيرهم من المدمنين الكثر، حيث يفتقر هؤلاء الناس إلى الوعي بإدمانهم، في أن بعض المشاهدين أقاموا علاقات شبه إجتماعية مع بعض الشخصيات التي يشاهدونها في التلفزيون.(المرجعنفسه: ص 109)

يبدو أن آثار الهيمنة التلفزيونية متعدّدة حكمت على الأفراد أن يشاهدوا ما هو موجود من عدد المواضيع المعروضة والمحدودة نسبيا – الشباب – العنف – الجنس – الموضة...الخ – هكذا يحاجج المديرون التنفيذيون للتلفزيون – إننا نعرض ما يطلبه المشاهد – لكن الحقيقة قد يظل المرء يقفز بين قنوات التلفزيون دون أن يعثر على حاجته ببساطة لأن كل شيء مجرّد تكرار ثم إعادة تنميقية لا غير.

هشاشة الإعلام العربي وتداعي الثقافة العربية:

لقد أصبحت المنظومة الإعلامية في الوطن العربي أكثر هشاشة من أي وقت مضى، وصارت عرضة للإختراق الذي تمارسه مؤسسات الإعلام الأجنبية بما تفرضه من قيم وثقافات دخيلة، وإزاء النقد الموجه لوسائل الإتصال الجماهيري العربية بصفة عامة، ترى الباحثة "عواطف عبد الرحمن" أن محصِّلة التَّبعية في العالم العربي، مثله مثل العالم الثالث تؤدي إلى تسويق سلع جماهيرية مستوردة على وجه الخصوص من المملكة المتّحدة وفرنسا والولايات المتّحدة الأمريكية، وتعمل هذه السِّلع المستوردة على أن ترسخ "صورة الحياة الإستهلاكية" وتعرض مقوّمات الشخصية العربية والثقافية والقومية للتّشويه والمسخ والإغتراب الحاد (مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، تطوير الثقافة الجماهيرية العربية : ص ص 49 - 50).

ولعل هذا ما نسميه اقتداء المغلوب بالغالب "فسرعان ما أصبحت الثقافة العربية المحلّية غير ذي أهمية أمام سطوة القيم والمسلكيات الثقافية

العربية التي يروّج لها التلفزيون كأحد أركان وسائل الإعلام المعاصرة، ويرى "عبد العزيز ربيع" أصبح التلفاز العربي وسيلة لرفع مستوى التوقّعات الشعبية لدى الجماهير العربية وتوجيهها وجهة استهلاكية لا إنتاجية، الأمر الذي أدى إلى تكريس إحساس العربي بالنقص تجاه الأجنبي، وبالإحباط أمام المحاولات الفاشلة لإشباع التوقّعات المتزايدة"(المرجع نفسه: ص 50).

ولهذا يحاول الباحثون العرب إلى إبراز أخطار المنتجات الإعلامية التي تحفل بها القنوات المحلية والأجنبية إذ يشير باحث آخر إلى أن الثقافة الجماهيرية التي تقدّمها التلفزة العربية: ثقافة تحاول تقليد ما انتشر في المجتمعات الصناعية من أفلام غرامية مبتذلة، ومسلسلات بسيطة مخدرة بعيدة كل البعد عن مشاغل المجتمع العربي الحقيقية، ويضيف أن الصبغة التجارية قد طغت على التلفزة والسينما فأصبح الإنتاج الثقافي بضاعة تباع وتشترى وتخضع إلى قاعدة العرض والطلب وإلى قانون تراكم رأس المال(المرجع نفسه: ص 52)

كما أن ازدياد عدد القنوات الفضائية العربية لا يعدم أن تكون سلبية وفاقدة للمضمون كونها مقلّدة للبرامج الأجنبية يغلب عليها طابع التَّسلية وتفتقد لمعيار توجيه ثقافي يجعل من التراث والفكر العربي الإسلامي مضمونا له، بل أصبحت تركّز على ما تقدّمه من إشارة ودعابة حتى جعلت من المواطن العربي يستسلم لنموذج ثقافي واحد لا يعالج فعلا كبرى القضايا الإجتماعية والسياسية للإنسان العربي.

فضلا عن ذلك يجد المواطن العربي نفسه منخرطا في ثقافة الصورة، تلك الثقافة التي تحيل إلى استهلاك كل ما تجود به تكنولوجيا الإعلان والإشهار من سلع وبضائع تدفع إلى السعادة والحصول على أكبر قسط من الراحة والإرتخاء عبر الإعلانات التلفزيونية التي لا تنتهي ومضاتها خلال ساعات البث، لتغمس المشاهد في عالم الخيال المصطنع إن التلفزيون اليوم يفتح على المشاهد سلسلة من المطالب دون أن يعالج ما يحتاجه المرء في أهم القضايا والمشكلات، وأصبحنا اليوم نقبل على أتفه الأشياء ونحسبها من الأساسيات.

وفي ها السِّياق تطرح العديد من القضايا في مسألة السياسات الإتصالية في الوطن العربي من بينها حول العلاقة بين أجهزة الثقافة ووسائل الإتصال الجماهيرية ثم مدى وضوح الأهداف المتوخاة في الساحة الإعلامية، إذ لا يسعنا إلا أن نشكك في مستوى ومجال الإعلام المقدّم للجمهور العربي، ومن هذا المنطبق يرى الباحثون أن وسائل الإتصال الجماهيري تهدِّد استقلالية الإنسان وتشجعه على الهروب من الواقع، بل إن بعض المفكِّرين الغربيين وصنف برامج التلفاز بأنها "ثقافة متدنِّية تعلم على إفساد المجتمع أخلاقيا وجنسيا"(المرجع نفسه: ص 41).

التلفزيون وتداعي الوظائف والروابط الأسرية:

مع كل ما تقدمه الشاشة الصغيرة (سابقا) من مزايا تثقيفية وتربوية وتوعوية للمشاهد عموما، فإن ذلك لا يعصمها من أن تكون في قلب الإنتقادات التي تحفل بها الكثير من الدراسات سواء من طرف رجا الإعلام وغيرهم ممن علماء النفس والإجتماع، لا سيما في موضوع الإعلام والمجتمع أو موضوع الأسرة والإعلام وكذلك أثر الإعلام على الأطفال والشباب.

وما يعنينا في هذا المجال بالضبط هو أثر الإعلام على الحياة الأسرية وحجم التبادلات بين الإعلام التلفزيوني وحياة الأسرة، وحتى تكون الرؤية دقيقة ينبغي أن نجد المعالم الكبرى للعلامة بين التلفزيون والأسرة في هذا العصر الذي يصدق عليه أنه عصر التلفزيون، وسنبين هذه المعالم كما يلي:

1- التلفزيون كظهير ثقافي للأسرة:

نود في هذا الجزء أن نشير إلى فكرة الظهير الثقافي بمعنى المرجعية القيمية والذوقية والسلوكية لأعضاء الأسرة، أي أن التلفزيون اليوم قد أفقد إلى حد كبير مكانة الثقافة التقليدية والأعراف الإجتماعية التي تعتبر الإطار المرجعي للأسرة في كل الأحداث والمناسبات، وهذه الثقافة التقليدية طبعا تقوم على مرجعية دينية في الأساس فضلا عن تقاليد ومسلكيات شعبية هي من إنتاج رحم المجتمع، لكن اليوم يبدو أن هناك تغييرا حدث واستبدلت هذه المرجعية التقليدية بظهير ثقافي جديد ترجع إليه الأسرة في

ضبط طريقها وأسلوبها في الحياة وبشكل مباشرنقول أن التلفزيون أصبح مصدر الإختيارات والأذواق التي تحتكم إليها الأسرة.

لكن ينبغي أن نبيّن هذا التغيير، كونه حدث بفعل التحسُّن التدريجي في مستويات معيشة الأفراد والأسر ولو بشكل نسبي، وهذا ما ولَّد إلى حد ما كبيرا من وقت فراغ، جعل وسائل الإعلام تسارع نحو ملئه واستغلاله ولكن دائما فإن طرف المعادلة هو تحقيق أكبر قدر من الربح من وراء خلق الأوراق السخيفة والمتع الرخيصة المبطنة في البرامج التلفزيونية من مسلسلات عاطفية وأفلام تعج بالخيال واللامعقولية، وكذلك الإعلانات الإشهارية، والحصص الإبتزازية على كل أنواعها.

فالفروق بين الثقافة والمجتمع تزداد انهيارا وهذا يستلزم وجود مجتمع مشبع إعلاميا، فيه يصبح الإعلام الواسع ذا قوة شديدة، وبدلا أن يعكس الإعلام للحقيقة أصبح التركيز على خلق إحساس للمشاهد بذلك الواقع(هار لميس وهولبرون، سوسيولوجيا الثقافة والهوية: ص 86)، وينسحب هذا على الأسرة وأعضائها، فتركيز الأسرة أصبح ..... نحو ما تفرضه البرامج التلفزيونية متع لحظية تنقضي بانقضاء عمر المشاهد التلفزيونية، لكنها تظل مسيطرة على تفاصيل الحياة الأسرية، بل تصبح الحياة نفسها ذات صبغة تجارية تحمل الماركات التجارية والموضة العصرية ذوقية الأسرة حتى ولو كانت هذه الأخيرة سطحية وتفتقد للأصالة والقوّة.

لقد أصبحت إذن الحياة الأسرية يغلب عليها الطابع التجاري بسبب تزايد الإستهلاك الأسري وكثرة الأذواق بين أعضاء الأسر، "فمثلا النشاطات المتعلِّقة بالعائلة مثل الطعام أصبحت خاضعة لبرامج التسويق السلعي، والإستهلاك الذي كان يتم في المنزل وضمن أعضاء نفس العائلة أصبح وبشكل متزايد يخذ طابعا مختلفا وذلك عبر استهلاك مختلف الأشياء. فالأطفال أصبح لهم تلفزيون خاص بهم ويجلسون في غرفة مختلفة عن غرفة الوالدين ويشاهدون برامج تلفزيونية وإعلانات مختلفة يتناولون غذاء مختلفا(المرجع نفسه: ص 84).

وعليه يمكن القول أن قيم السوق التجاري التي أفرزها النظام الرأسمالي في مرحلة توحشه المعاصرة، قد بدأت تتسلَّل إلى الأسرة العربية وتهدِّدها في استقرارها وعلى رأس هذه القيم قيمتان هما:

أ-الرغبة الجامحة في الاستكثار من المال: وتقييم كل شيء على أساس قيمته المادية، وهي رغبة لا سقف لها ولا حدها، ولا نكاد نفسخ إلى جوارها مكانا لقيمة أخرى.

ب-قيمة المنافسة: والتي غالبا ما تتحول إلى صراع واستعداد عقلي ونفسي لاستبعاد الآخر بكل الوسائل... ويرى بعض الباحثين أن السِّمة الغالبة الواضحة في الحياة الإجتماعية العربية عموما شيوع الإستهلاك والمظهرية والتقليد على حساب الإنتاجية الإبداع(نسيمة طبشوش، مرجع سابق: ص ص 207 - 208).

إن الأسرة العربية أخذت تفقد تماسكها العاطفي حينما استحالت طموحاتها بلون استهلاكي يلهث خلف قيم ومسلكيات تبثها الإعلانات التلفزية وتحفِّز عليها المتاجر المكتنزة بالبضائع والسلع المعروضة، وخلق هذا السعي وراء هذا النمط الجديد من الأسر وجدت ثقافة جديدة بدلا من ثقافة عائلية موحَّدة أصبح كل فرد في العائلة له أسلوب حياته الخاص به... إن أساليب الحياة ذاتها أصبحت متحرِّرة من الإرتباط بمجموعات معيَّنة(هارلميس وهولبورن، مرجع سابق: ص 84). أي (الطبقة الاجتماعية، الجماعات الصغيرة، الأسرة) بل أصبح لكل فرد داخل الأسرة أن يكون الشخص الذي يريد وبالذوق الذي يختار، وأن يستبدل ذلك كلما لاح في الأفق لون وشكل جديد يعرضه الإعلان والبرامج التلفزيونية، فكل شخص يستطيع أن يصبح (بالاختيار) أي فرد.

إن الإعلام اليوم والتلفزيون خاصة أصبح يدمِّر الأحاسيس ويهدِّم الروابط الأسرية ويقتل السلطة والمكانة الأبوية، فالتلفزيون تحول إلى الصديق والمعين والموجه في أغلب الأحوال، بينما تلاشت سلطة الوالدين وأغرقت العلاقات الأسرية من مضمونها العاطفي ولم تعد سوى علاقات

عابرة مؤقتة طالما أنها لا تشتغل حيّزا كبيرا من وقت الأفراد، ذلك الوقت الذي انفرد به التلفزيون على جل مشاغل الفرد وإلزاماته، وانحصرت العلاقات في دائرة الحاجة والمبادلة المادية.

إذ تشهد الأسرة العربية نوعا من تفكُّك التماسك الأسري، بسبب تراجع سلطة الوالدين وخاصة الأب في السيطرة على ضبط سلوك الأبناء، بسبب انشغالهم بالعمل... ومن جهة أخرى فإن ضعف التماسك يتعلَّق بالأنباء أنفسهم، حيث يقضي الأبناء الساعات الطوال في متابعة برامج القنوات القضائية المتنوّعة(نسيمة طبشوش، مرجع سابق: ص ص 207 - 208).

ومن جانب أثر التلفزيون على العلاقات الأسرية، فيمكن ملاحظة التفكيك والإنعزالية التي أصابت الأواصر الأسرية، وجعلت من أعضاء الأسرة الواحدة ذرّات متنافرة بسبب عدد البرامج المتعدِّدة التي تقدِّمها هذه الوسيلة، وعلى الرغم من أن التلفزيون يخلق جمهورا كبيرا من المشاهدين، فإن معظم الناس الذين يشاهدون البرامج التلفزيونية في أي وقت تقريبا هم معزولون في مجموعات أسرية صغيرة، وما يعني أنه حتى المجموعة الأسرية لم تعد هي جمهور مشاهدة التلفزيون لأن الأطفال اليوم يشاهدون التلفزيون في غرفهم الخاصة، كل ذلك يوحي في نهاية المطاف بأن التلفزيون يؤدي إلى زيادة العزلة وينتج عنه أن الناس يفصلون أنفسهم عن الآخرين حتى في بعض الأحيان-عن أفراد أسرهم ". (آرثر آسيا بيرغر،مرجع سابق، ص ص 106 - 107)

2- التنشئة الإكترونية في مقابل التنشئة الأسرية:

لم يعد خافيا على أحد ما تعج به الحياة من ابتكارات تكنولوجية محدثة ثورة إلكترونية، وينسحب ذلك على التقنيات الحديثة في مجالالإتصال التي سيطرت على اهتمام الناس، والأطفال والشباب خاصة هم من أقاموا ضربا من العلاقة الوطيدة بهذه الوسائل ولم تعد كذلك فحسب، بل أصبحت توحي بانجذاب شديد بين أبناء الأسر اليافعين نحو الإغراقات والذوقيات التي تعج بها ثقافة الصورة مستوحات من القيم

المبتذلة والعلاقات الفارغة التي سكنت عقول الناشئة الصغار ويرضى الوالدين أحيانا.

وقد لا نبالغ حينما نقول أنه عصر أوكلت فيه مهمة التوجيه والتنشئة إلى أجهزة الإعلام، تتقدمها التلفاز بامتياز، وليس "هناك ما يدعوا إلى الشك في أن مشاهدة التلفزيون تسهم في السلوك المفرط لدى العديد من الأطفال الذين اعتادوا الترفيه الذي لا ينتهي ولا يطوِّرون قدرتهم على أن يكونوا في الفصول الدراسية... قد يكون الإرتفاع المذهل في عدد الأطفال المصابين باضطراب نقص الإنتباه أو نتقص الإنتباه للنشاط المفرط مرتبطا بمستويات عالية من مشاهدة التلفزيون والتعرض لوسائل الإعلام"(المرجع السابق: ص 106)

وفي هذا الصدد تشير الكثير من الدراسات إلى الإدمان الذي يرتكبه الأطفال والمراهقين في مشاهدة التلفاز، غير أن ذلك يقع خطره في نوعية التثقيف الذي يتعرض له هؤلاء، وقد لا يميزه بين الإحاء والخيال والواقعية لما يرونه من أحداث ومواقف، كما يقع الخطر الداهم بأن التلفزيون مهووس بمجموعة ضيِّقة نسبيا من المواضيع – العنف، الجنس ولاستهلاك والشباب والشهرة، في نهاية المطاف يؤدي هذا التَّركيز الضيق في التلفزيون إلى تضاؤل حاسة الإحتمالية لدى المشاهدين وضيق لما يعنيه مفهوم أن يكون المرء إنسان.

يمكن القول أن التلفزيون لا يعطي الناس ما يريدون ولكن يعلمهم أن يريدوا ما يحصلون عليه" (المرجع نفسه: ص 109).

كما يرى "ويمر" أن تكرار التعرض لصورة الواقع الحقيق للتلفزيون والأفكار المرتبطة إلى هذه الصورة يؤدي إلى إدراك الأفراد إلى هذه الصورة إلى طريقة مشابهة لما يعرض في التلفزيون(محمود عبد الله الخوالدة/ حسن علي العموش، المرجع السابق: ص 156) ، وبالمقارنة مع ما يعرض في ضوء الدراما التلفزيونية والأفلام البوليسية وفي الأفلام الهزلية فإن مضمونها الهابط في الغالب ولا تعبر فعلا عن معاني البطولة والنزاهة والإحتشام

والحرّية الشخصية الحقّة، بل هي تمييع لمآثر الثقافة السليمة والحس الأخلاقي والذوق الرفيع، هنا إذن ترتبك آليات التنشئة الإجتماعية لمضامين جرى إنتاجها ونشرها في طريق مغاير لا يؤدي إلا إلى الإبتذال والإفراط أو التطرُّف.

إن التنشئة اليوم قد فقدت عقالها من الأسرة لتقع في قبضة الإنتاج التلفزيوني والسينمائي الذي لا يرحم نفوسا لم تستوي سوقها بعد، بينما أثرت الأسرة حياة الرفاه والإستهلاك لكل ما هو مادي باعتباره أساس النجاح والتفوُّق، وبالرجوع دائما إلى عالم الأطفال والمراهقين فقد القوة والمركزية ولم تعد الصورة والنموذج الوالدي شيئا ذي أهمية، بينما يلمع بريق الشخصيات النجومية التي تظهر عبر الأفلام والمسلسلات التلفزيونية، حتى أن المشاهدين أقاموا علاقات شبه إجتماعية مع بعض الشخصيات التي يشاهدونها في التلفزيون وهم يشعرون بأنهم يعرفون فعلا هذه الشخصيات والفنانين الذين يؤدون أدوارهم، هؤلاء المشاهدون في حاجة إلى أن يكونوا مع الشخصيات في برامجهم المفضلة"(آرثر أسا بيرغر، مرجع سابق: ص 109)

ويبدوا أثر التلفزيون السلبي كبيرا في تعويد الطفل على تلقي المعلومات دون المشاركة في صنعها، يقول الباحث "هيمولت": إن المشاهدة التلفازية نفسها نشاط ذهني سلبي" والمشكلة أن الأطفال يثقون بهذا الجهاز أكثر من ثقتهم بأي مصدر آخر(بلال حمدي عرابي/ أمل حمدي دكاك، مرجع سابق: ص 217)، ما يعني أن الإنطباعات الحثيثة أكثر التصاقا بتفكير الأطفال علما أن الصور الإنطباعية عبر البرامج التلفزيونية هي التي تترسخ من أي فكرة مجردة وتصبح الأحداث والقضايا المشاهدة في التلفاز هي الواقع الحقيق حتى قبل وقوعه في عالم الواقع.

"وعليه فإن القلق من تأثير التلفاز في الأطفال أدى إلى نشوء حركة واسعة في دول العالم لتقويم تأثيره في شخصية الأطفال وفي سلوكهم، وكان الخوف الرئيسي أن يصبح الأطفال أكثر سلبية أو قلقا أو خضوعا أو انحرافا نتيجة لمشاهدة التلفاز (المرجع نفسه: ص 216)

ولعل أكثر المواقف التي نخشاها هو ازدياد كميات العنف المنتجة في الأفلام والمشاهد الهزلية، تلك التي لا يفرق الناشئة كأعمال تمثيلية وما يقابلها في دنيا الواقع، فهناك الكثير من العنف في العديد من الأفلام المعاصرة وبرامج التلفزيون إلى درجة الإفراط في القتل، يفقد العنف أهميته في حبكة هذه النصوص على الرغم من أثر العنف في نفسيتنا يبقى مستمرا، وفي الأخبار المحلية التي تظهر تقارير عن العنف المجتمعي، والعنف الكارتوني، والعنف الرياضي..إلخ(آرثرأساها بيرغر، مرجع سابق: ص 177)

الخاتمة:

على الرغم من الدور الذي يلعبه التلفزيون في حياة الأفراد والأسر في مجالات التثقيف والترفيه والتربية، إلا أنه يتراءى جيّدا مدى الاكتساح الذي فرضه التلفزيون على الحياة الأسرية، وأصبح من الشواغل التي تستنزف الكثير من الوقت، ومن ناحية أخرى فإن الصبغة التجارية التي كوَّنت الإعلام فإن استقرار الأسر وثباتها في أداء دورها قد أصبح مهدّدا بسبب المنافسة الشديدة لوسائل الإعلام الحديثة.

وعليه فإن كثيرا من خصوصيات ووظائف الأسرة قد انهارت وأصبحت ضعيفة أمام سيطرة التلفزيون الذي يقدم ثقافة يغلب عليها طابع الاستهلاك المفرط والقيم الهابطة المستوى، كما صارت التنشئة الإجتماعية خاضعة لصناعة الصورة، وأمام هذه الوقائع الجديدة صار لزاما على المجتمع أن تكون له رؤية خاصة لطبيعة التخطيط الإعلام ورسم السياسة الإتصالية التي تفك روابط التبعية والاستغلال من أجهزة الإعلام ومؤسّساتها الغربية التغريبية.

قائمة المصادر والمراجع:

1- آرثر آسا بيرغر، ترجمة صالح خليل أبو أصبع، وسائل الإعلام والمجتمع، عالم المعرفة، الكويت، مارس ع 386، 2012.
2- إكرام أحمد الأهواني، الاتصال بين العولمة والمحلية، ط1، القاهرة، دار الكتاب الحديث، 2010.

3- بلال حمدي عرابي، علم الاجتماع التربوي، جامعة دمشق، سوريا 2006.

4- هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة حاتم حميد محسن، ط1، دمشق 2010.

5- وفيق صفوت مختار، وسائل الاتصال والإعلام وتشكيل وعي الأطفال، القاهرة، دار غريب، 2008.

6- مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ط1، الإمارات العربية المتحدة، 2002.

7- محمود عبد الله الخوالد/ حسين علي العموش، علم النفس السياسي والإعلامي، ط1، عمان، دار حامد، 2008.

8- نسيمة طبشوش، القنوات الفضائية وأثرها على القيم الأسرية لدى الشباب، الجزائر، مؤسسة كنوز الحكمة، 2011.

9- فضيل دليو، تاريخ وسائل الاتصال، ط3، دار أقطاب الفكر، الجزائر، 2007.

10- عاطف عدلي العبد، مدخل إلى الاتصال والرأي العام، القاهرة-مصر، دار الفكر العربي، 1997.